الكاتب: عبد الحليم تموميات
06 أكتوبر 2010 23:33

الأربعاء 27 شوال 1431 هـ الموافق لـ:

فقد رأينا في الحلقة السّابقة مولد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وكانت لنا وقفات أمام هذا الحدث العظيم، والمولود الكريم، إلاّ أنّه صلّى الله عليه وسلّم قُدّر له أن يُولَد يتيما، وكان من وراء ذلك - كما سبق بيانه - من الحكم البالغة ما لا يخفى.

وإنّنا اليوم - إن شاء الله - نتطرّق إلى نشأة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم :تسميته ثمّ ورضاعته وحضانته صلّى الله عليه وسلّم.

تسميته صلّى الله عليه وسلّم.

فما أن وضعت آمنة بنت وهب نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم، حتّى أرسلت إلى جدّه عبد المطّلب: أنّه قد وُلِد لك غلام، فأتِه فانظر إليه.

ولقد كان جدّه عبد المطّلب خيرَ مُعينٍ لأمّه صلّى الله عليه وسلّم، فاحتفى بمولده احتفاء عظيما ..

وهل هو من سمّاه)محمّد) أو أمّه ؟ لا دليل يُثبت أحدَهما .. المهمّ أنّ الاسم الّذي كان يتردّد على ألسنة الأنبياء، وتحنّ إليه أعين الأتقياء، صار من عالم الشّهادة ...

وحين سمعت العرب بذكر مبعث آخر رسول وأنّ اسمه أحمد ومحمّد، وأنّه يُبعث من أرض الحجاز، طمع الكثيرون أن يكونوا هم أصحاب هذا الشّرف العظيم، فسمّوا أولادهم بمحمّد، من هؤلاء: محمّد بن مجاشع - وهو جدّ جدّ الفرزدق الشّاعر -، ومحمّد بن أحيحة بن الجلاّح ، ومحمّ
د بن حمران بن ربيعة
.

وفي هذا ردّ على المتصوّفة الّذين ادّعوا أنّه لم يتسمّ قبله باسمه أحدٌ ! ولماذا قالوا ذلك ؟

قالوا: لأنّه صلّى الله عليه وسلّم أفضل من نبيّ الله يحيَى عليه السّلام، فهو أولى بقوله تعالى:{ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا } !

ولا يُستبْعد من أمثال هؤلاء أن يتفوّهوا بمثل هذه التّرهات .. فقد قالوا أكثر من ذلك .. ومن عجيب ما سمعته أذناي استدلال أحدهم على استحباب الاحتفال بمولد رسول الله
صلّى الله عليه وسلّم بقول أهل السّير المذكور آنفا عن عبد المطّلب:
فاحتفى بمولده احتفاء عظيما
!!

الكاتب: عبد الحليم تموميات
06 أكتوبر 2010 23:33

فيستدلّون بعمل عبد المطّلب وهم أنفسهم يقرؤون عنه - على جلالة قدره ومكانته - أنّه كان لا يزال يذهب إلى الكاهن و ويعظّم الأوثان وغير ذلك !!

ثمّ إنّ عبد المطّلب احتفل بمولد حفيده، فمن ذا الّذي يمانع من أن يحتفل المسلم بمولد ابنه أو حفيده ؟!

وهكذا إذا ضلّت العقول فليس لضلالها حدّ معقول.

دعونا - معاشر القرّاء - من هذا الخرف والهراء، لنعود إلى بيت آمنة .. فإنّه بعد تسمية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، حان وقت التماس المراضع.

رضاعته وحضانته صلّى الله عليه وسلّم.

فكانت أمّه آمنة أوّل من أرضعت ابنها اليتيم، تشاركها امرأة أخرى، تُدعى:

أمّ أيمن، واسمها: بركة بنت ثعلبة بن عمرو.

وامرأة ثالثة هي: أمةٌ لعمّه أبي لهب واسمها: ثويبة، وهي الّتي أرضعت معه أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي -كما في الصّحيحين-.

ثمّ جاء دور استرضاع الأولاد من نساء أهل البادية، فكانت تلك عادتهم طمعا في نجابة الأولاد، فجاء المرضعات يلتمسن الرّزق بذلك .. وكانت أقدامهنّ تتزاحم على كلّ باب سُمِع أنّ به مولودا جديدا .. وندع المرضعة حلي
مة بنت أبي ذؤيب السّعديّة
من قبيلة بني سعد بن بكر تروي لنا قصّتها في ذلك:

تحدّثت: (أنّها خرجت من بلدها مع زوجها، وابنٍ لها صغيرٍ ترضعه [1] ، في نسوة من بني سعد بن بكر، تلتمس الرّضعاء.

الكاتب: عبد الحليم تموميات
06 أكتوبر 2010 23:33

قالت: وذلك في سنة شهباء [2] ، لم تُبقِ لنا شيئا، فخرجْتُ على أتان لي قمراء معنا شارف لنا، والله ما تبضّ بقطرة [3] ، وما ننام ليلنا أجمع من صبيّنا الّذي معنا من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذّيه، ولكنّا كنّا نرجو الغيث والفرج.

فخرجت على أتاني تلك، فلقد أَدَمْت [4] بالرّكب، حتىّ شقّ ذلك عليهم ضعفا وعجفا [العجف: الهزال]. حتّى قدمنا مكّة نلتمس المرضعاء، فما منّا امرأة إلاّ وقد عُرِض عليها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فتأباه إذا قيل لها : إنّه يتيم ، وذلك أنّا إنّما كنّا نرجو المعروف من أبي الصبيّ، فكنّا نقول: يتيمٌ وما عسى أن تصنع أمه وجدّه، فكنّا نكرهه لذلك.

فما بقيت امرأة قدمت معي إلاّ أخذت رضيعا غيري، فلمّا أجمعنا الانطلاق، قلت لصاحبي: والله إنّي لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعا، والله لأذهبنّ إلى ذلك اليتيم، فلآخذنّه ! قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركةً.

قالت: فذهبت إليه، فأخذتُه، وما حملني على أخذه إلاّ أنّي لم أجد غيرَه.

فلمّا أخذتُه، رجعتُ به إلى رحلي، فلمّا وضعتُه في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرِب حتّى رَوِيَ، وشرب معه أخوه حتى روي، ثمّ ناما وما كنّا ننام معه قبل ذلك. وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا إنّها لحافل ، فحلب منها ما شرب وشربت معه، حتّى انتهينا ريًّا وشِبَاعاً، فبتنا بخير ليلة.

قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي - والله - يا حليمة، لقد أخذتِ نسمةً مباركةً. قالت: والله إنّي لأرجو ذلك.

قالت: ثمّ خرجنا، وركبت أتاني، وحملته عليها معي، فوالله لقطعت بالرّكب ما يقدر عليها شيءٌ من حُمُرِهم، حتّى إنّ صواحبي ليَقُلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب ! ويحك ارْبَعِي علينا ! أليست هذه أتانُك الّتي كنتِ خرجتِ عليها ؟ فأقول لهنّ: بلى والله إنّها لهي ! فيقلن: والله إنّ لها لشأنا .

الكاتب: عبد الحليم تموميات
06 أكتوبر 2010 23:33

قالت: ثمّ قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدبَ منها، فكانت غنمي تروح عليّ حين قدمنا به معنا شِباعاً لُبّناً ،
فنحلُب ونشرَب، وما يحلُب إنسان قطرةَ لبنٍ، ولا يجدُها في ضِرعٍ حتّى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرُعيانهم: ويلَكم ! اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب !

فتروح أغنامُهم جِياعاً ما تبِضّ بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعا لُبّناً.

فلم نزل نتعرّف من الله الزّيادة والخير، حتّى مضت سنتاه، وفصلتُه، وكان يشِبّ شبابا لا يشبِه الغِلمان، فلم يبلغ سنتيه حتّى كان غلاما جَفْراً [5] .

قالت: فقدمنا به على أمّه، ونحن أحرص شيءٍ على مُكثِه فينا، لما كنّا نرى من بركته، فكلّمْنَا أمّه، وقلت لها:

لو تركتِ بُنَيّ عندي حتّى يغلَظ، فإنّي أخشى عليه وبأَ مكّة [تقصد: الطّاعون] ! قالت: فلم نزل بها حتّى ردّته معنا ..."اهـ

وقبل أن ندع السيّدة حليمة السّعدية تواصل سرد ما لديها من نشأة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في حجرها، فإنّه لا بدّ من أن نستخلص بعض العبر من ذلك:

* المحكمة البالغة من وراء هذه النّشأة المباركة:

نلحظ أنّ مبدأ نشأة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان في رعيِه للغنم في بادية بني سعد، ولا ريب أنّ رعي الغنم سنّة الأنبياء، فقد روى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النّبِيّ صلّى الله عليه وسلّم قَالَ: ((
مَا بَعَثَ اللّهُ نَبِيًّا إِلّا رَعَى الْغَنَمَ
)).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في " فتح الباري ":

قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوّة:

الكاتب: عبد الحليم تموميات
06 أكتوبر 2010 23:33

أن يحصل لهم التمرّن برعيها على ما يكلّفونه من القيام بأمر أمّتهم.

-ولأنّ في مخالطتها ما يُحصِّلُ لهم الحلمَ والشّفقةَ، لأنّهم إذا صبروا على رعيِها، وجمعِها بعد تفرّقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، و
دفع عدوّها
من سبُع وغيره كالسّارق، وعلموا
اختلاف طباعها
و
شدّة تفرّقها
، مع
ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة
ألفوا من ذلك الصّبر على الأمّة
، وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها، فجبروا كسرها ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التّعاهد لها، فيكون تحمّلهم لمشقّة ذلك أسهلَ ممّا لو كُلِّفوا القيام بذلك من أوّل وهلة، لما يحصل لهم من التّدريج على ذلك برعي الغنم.

-وخُصّت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها، ولأنّ تفرّقها أكثر من تفرّق الإبل والبقر لإمكان ضبط الإبل والبقر بالرّبط دونها في العادة المألوفة " اهـ.

-وهنالك حكمة أخرى لم يذكرها رحمه الله، وهي أنّ الرّحمة والسّكينة في أهل الغنم.

فقد روى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلّم قَالَ: « الْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ فِي أَهْلِ الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ وَالْفَدَّادِينَ أَهْلِ الْوَبَرِ
،
وَالسَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ
»
[6]
.

ولكن حدث أمر عظيم هو أيضا من دلائل نبوّته صلّى الله عليه وسلّم، نتطرّق إليه - إن شاء الله - وإلى بعض الدّروس منه في الحلقة المقابلة.

الكاتب: عبد الحليم توميات
06 أكتوبر 2010 23:33

[1] - واسمه: عبد الله بن الحارث بن عبد العزّى.

[2] - المجدبة البيضاء التي لا يُرى فيها خُضرة.

[3] - الأتان: أنثى الحمار، والقمراء البيضاء فيها كدرة نحو الرّمادي. والشّارف: النّاقة المسنّة. تبض: أي: ترشح العرق.

[4] - أطلت عليهم السّير، لأنّهم ينتظرونها.

[5] - الغليظ الشّديد.

[6] -الفدّادون: هم أهل البقر التي تستعمل للحرث، وقيل: رعاة البقر الّذين لهم فديد وهو الصّراخ.